مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الثاني ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

ذو القعدة ١٤٠٨هـ ـ حزيران ١٩٨٨م

المعايير المميزة للريف والحضر

في العصور الإسلامية

دراسة تاريخية مقارنة بالمعايير الحديثة

الدكتورة ناجية عبدالله ابراهيم

كلية التربية للبنات ـ جامعة بغداد

المقدمة

تهدف الدراسات التاريخية عموماً الى معرفة الأحداث والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، وتطوراتها في المجتمع خلال حقبة تاريخية معينة أو حِقب محددة . ولا ريب أن المادة الأساسية لهذه الدراسات تتمثل في المعلومات المدونة في المصادر ذوات العلاقة ، التاريخية منها ، والجغرافية والأدبية والفقهية وغيرها .

كان تخطيط المدن وبناؤها يمثل طفرة حضارية في حياة الانسان ، لأنها عكست تطور الفكر الانساني من جهة ، وكانت سبيلاً لظهور النظام السياسي والاداري للمجتمع من جهة أخرى . وبذلك كان ظهورها قد أوجد أنواعاً وأنماطاً من النظم والعلاقات الانسانية المعقّدة والمتشابكة تجاوزت النظم والأنماط والعلاقات التقليدية السائدة في الريف ، وانعكس ذلك على أبنية المجتمع المحلي في كل منهما ، فطبعته بطابع خاص ، وصارت له معالم وسمات خاصة به . وبذلك صار التباين بين الريف والحضر يمثل قطبي التناقض الذي

حدد انقسام المجتمع الى مجتمع ريفي وآخر حضري طَوالَ حقب التاريخ ، الى يومنا هذا . واذا كانت الفوارق القائمة بينهما هي الشغل الشاغل لكثير من الدول ، ولاسيما النامية منها على وجه الخصوص ، التي بدأت مع بدايات هذا القرن تولي الريف وسكانه الفلاحين اهتماماً كبيراً ، لأنهم يمثلون الغالبية من سكان المجتمع ، وعلى عاتقهم تقع مسؤولية الانتاج الزراعي واغناء الدخل القومي ، فان هذا الاهتمام يأخذ الأولوية في عملية التغيير الاجتماعي الحديث باتجاه بناء مجتمع متقدم ، يأخـذ الريف شكله العصري ، من خلال توفير مستلزمات الحياة الحديثة له .

وموضوع البحث محاولة لتعرف المعايير التي كانت تميز الريف عن الحضر في العصور الاسلامية الوسيطة مع قراءة سريعة للتطور الذى أصابها من خلال المقارنة بالمعايير المعتمدة حديثاً .

ولا شك أن البحث في مثل هذا الموضوع لم يكن سهلاً ، لا لكونه بكراً فحسب ،بل لندرة المعلومات من جهة ، وتناثرها بين سطور الكتب المتنوعة من جهة اخرى . ناهيك عن الصعوبات التي واجهتها الباحثـة في دراسـة المصطلحات اللغوية والادارية التي كانت تتباين في معانيها ومدلولاتها من عصر الى آخر ، وأحياناً كان المصطلح الواحد يدل على معان متعددة أو مختلفة ، تبعاً للعصر الواحد أو لعصور متعاقبة . بل ان الأمر قد ذهب في هذا المجال الى أبعد من ذلك ليشير الى وجود تباين في معاني المصطلحات ـ خصوصاً الادارية منها ـ بين البلدانيين والفقهاء ، وأهل اللغة ، والعوام من الناس .

ومع أن هذه الأمور كانت تشير الى تطـور في حركة الوعي الفكري للمجتمع ، وتطور النظم الادارية والسياسية والاجتماعية فيه ، فقد كان عليّ أن أقف عليها جميعاً ، وأحاول جهدي أن أسلك الطريق العلمي للوصـول الى الحقيقة التاريخية الموضوعية . بيد أن هدف الوصول الى الحقيقة العلمية

لم يدفعنا الى استقراء النصوص والاستنتاج منها أو الأجتهاد فيها أكثر مما ينبغي ، لأن الدقة والمتابعة للوصول الى الحقيقة كانت غايتنا الاساسية . ولا نحسب أن هذا العمل قد انتهى الى الكمال . فالكمال لله وحده . وهو لا يعدو عن كونه محاولة متواضعة لدراسة جانب من حياة مجتمعنا ظل مُهملاً حتى الزمن الحاضر ، لِما يكتنفه من غموض وصعوبات واضطراب في المعلومات . ولعلي بهذا العمل قد أثير اهتمام الباحثين والمؤرخين لكشف المزيد من الحقائق والمعلومات في دراسات أخرى معمقة وواسعة لا تتناول المناطق التي تناولها البحث ، بل تمتد الى مناطق أخرى في عموم الدولة العربية الاسلامية المترامية الأطراف .

لقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه الى الفقرات الآتية :ـ

١ ـ الريف والمعايير المميزة له

(أ) معنى الريف :ـ

الريف في لغة العرب يعني موضع الزرع والشجر والخِصْب . والريف أيضاً ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها . ويجمع على ريوف وأرياف[١] .

ويقترن بتعبير الريف تعبير آخر شاع بين العرب والمسلمين عند انطلاق الفتوحات الاسلامية من الجزيرة العربية في عصرها الأول ، ألا وهو تعبير « السّواد » ، ويراد به جماعة النخل والشجر . سمي بذلك لخضرته ، لأن الخضرة عند العرب تقارب السّواد . والعرب تقول لكل أخضر : أسود ، لذلك أطلقوا على العراق الجنوبي اسم « السواد » ، لسواده بالنخل والشجر[٢] ، أي لكثافة خضرته .

ولما كانت السعة والخِصب هي سمة الريف ، فان سمة الخضرة في النخل

(١) لسان العرب : (ر ي ف) .
(٢) لسان العرب (س و د) .

والشجر هي سمة السواد ، وكِلاهما يعتمد على المياه والزرع والخِصب في الأرض ، ولا يكون ذلك بدونهما ، وكلاهما بمعنى واحـد . وأينما تكون الأرض مزروعة ومشجرة فهي سوداء . ولما كان الريف موضع الشجر والزرع والخصب ، فان الريف هو السواد[٣] .

(ب) موقع الريف

غير أن تعبير « السواد » له مدلول آخر يرتبط بالانسان ونمط عمله ويحدّد موقعه تحديداً دقيقاً . قال ابن منظور[٤] : « والسواد : ما حوالي الكوفة من القرى والرساتيق »[٥] . وقال أيضا : « وسواد الكوفة والبصرة والبصرة قراهما » . فالسواد هنا يعني القرى والأرضين الزراعية المحيطة بالمدن . وهو أمر له صلة وثيقة بالانسان ، كما ذكرنا ، وهو أحد عناصر مكونات الريف . والقرية لم تُسمَّ بذلك الاّ لاجتماع الناس فيها . والقرية هي الوحدة الاجتماعية لمجتمع ريف المدينة ، أية مدينة كانت ، والقرى والمزارع المحيطة بالمدينة ، هي ريف المدينة الذي يحمل اسمها[٦] بصرف النظر عن كون

(٣) لمزيد من التفاصيل ، انظر للباحثة : المفهوم اللغوي والاصطلاحي للريف والسـواد عند العرب ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م٣٤ ، ١٩٨٣ ٢/٢١٥ ـ ٢١٨ .

(٤) لسان العرب (س و د) .

(٥) الرساتيق : مفردها رستاق ورزداق ، لفظة فارسية معربة ، معناها السواد والقرى . وقد حاول الحموي أن يعطي تفسيراً دقيقاً لهذا التعبير كان معروفاً في زمانه (٧هـ/١٣م) في بلاد فارس لأن هذا التعبير كان أكثر ما يستعمل عندهم ، ويطلق على الوحدات الريفية حيث قال : الذي عرفناه وشاهدناه في زماننا في بلاد فارس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه قرى ومزارع ، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عنـد العرب بمنزلة « السـواد » عند اهل بغـداد . معجم البلدان ١/٣٩ ـ أما الرستاق عند أهل المغرب ، فيراد به اداريا « الاقليم » احسن التقاسيم ، ٢٢٢ .

(٦) معجم البلدان : ١/٣٩ .

بعض تلك المدن واقعة في السهل أو الغور أو في الجبل ، كما هو الحال في بلاد الشام حيث فيها قرى ومزارع كثيرة بعضها متاخم للبادية[٧] .

ومن الحقائق المعروفة أن نشوء القرية كان قد صاحب الانسان منذ استقر على سطح الأرض ، وانتقل من حياة الترحال الى حياة الاستقرار والعمل والانتاج قبل آلاف من السنين وعلى هذا فان سكان القرى هنا يراد بهم الفلاحون أهل الزراعة والحرث وسكان القرى في الأرياف .

ومن المفيد أن نشير هنا الى أن التعابير الخاصة بسكان الريف لم يكن استعمالها واحداً في جميع الأقاليم الاسلامية . فأهل « السواد » أو «السوادية» كانت مستعملة في العراق ، للدلالة على سكان القرى في الريف في حين كانت لفظة « قرياتي » مستعملة عند أهل الشام ، ولفظة « رستاقي » في بلاد فارس للدلالة نفسها[٨] . وامتد الاختلاف بين أهل الاقاليم كذلك الى التباين في التعابير المستعملة حول حِرَف سكان الريف . فكان هناك الزرّاع والفلاح والحراث والأكّار[٩] . وكان هناك الصحراوي والبقلي والبُستنبان كما في ريف بغداد[١٠] . أما في المغرب والأندلس ، فكان تعبير الريف يطلق على الأَرَضين التي تحف بالبحر أو المحيط[١١] .

---

(٧) نحو قرية (مؤتة) التابعة لمدينة مآب وقرية « الرّقيم » التابعة لمدينة عمان وكلاهما في اقليم الشام . انظر : أحسن التقاسيم ، ١٧٥ و ١٧٨ و ١٨٦

(٨) العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والاساليب ، ١٩٧ .

(٩) احسن التقاسيم ، ٣١ ومروج الذهب ٢٣٩/٤ وصبح الاعشى ، ١٢٤/١٣ .

(١٠) للاطلاع على تفاصيل أكثر ، انظر للباحثة ريف بغداد ، دراسة لتنظيماته الادارية واحواله الاقتصادية (اطروحة دكتوراه غير منشورة) ٣٦٤ .

(١١) العبادي : الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، م١١ ١٩٨٠ ع١ هامش ١٢٨ .

مما تقدم يتضح أن هناك سماتٍ معينةً لتحديد منطقة الريف ، أو موقع الريف . فحيثما وجدت المياه وجد الخِصْب ، وحيثما وجدت الأنهار وجد الانسان ، ووجدت القرى والمزارع ، وبذلك يتكوّن الريف . وفيما عدا ذلك لا يصح أن يكون كذلك . وقد عبر عنه العرب بتسميات عديدة . فما بَعُدَ من الريف سموه « العذيّ » ، وما دنا من الريف من قرى العرب سموه « المشارف » . أما ما بين الريف والبدو ، فسموه « العذار »[١٢] .

وعدى هذا فان الريف له صفة شمولية أوسع من مفهوم القرى داخل الاقليم الواحد .

(جـ) المعايير المميزة للريف

١ ـ معيار الحجم

من المعروف عند البلدانيين اعتماد معيار الحجم في تمييز القرية عن المدينة . والحجم هنا يُراد به حجم العمران من المنازل ونحوها في الرقعة الجغرافية التي تشغلها القرية . نقل الحموي عن الحسن بن أحمد المهلبي في كتابه العزيزي قولَه في سامراء : « وهي مدينة بين بغداد وتكريت ... على شاطيء دجلة من الشرق ... لم يبق فيها عامر سِوى مقدار يسير كالقرية »[١٣] . الأمر الذي يشير الى انحسار عمرانها بعد تدهور أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أواسط المئة الرابعة (١٠م) ، في أخريات أيام الخليفة المنتصر بن المتوكل ، وذلك بفعل اضطراب أحوال البلاد من تسلط النفوذ التركي واستبدادهم بالملك ، حتى أصبحت خراباً يباباً

(١٢) للاطلاع ، انظر للباحثة : المفهوم اللغوي والاصطلاحي للريف والسواد عند العرب (م.م.ع) م ٢٢٣/٢/٣٤ ـ ٢٢٤ .
(١٣) معجم البلدان ١٩/٣ وصبح الاعشى ٣٣٢/٤ .

يستوحش الناظر اليها ، وأصبح الرجل يسير الميلين والثلاثة ولا يرى فيهـا عمارة[١٤] . ولعل تسميتها بـ « سُرور من رأى » خير مثال على ازدهار أحوالها وجمال منظرها العمراني الذي امتد الى مساحة قدرها مرحلة[١٥] أي نحو (٣٨) كيلا .

أما مدينة «عكبرا» الواقعة على شاطيء دجلة الشرقي في العراق ، فقد وصفها الادريس من أهل المئة السادسة (١٢م) في عصره قائلاً : « .. وليس فيها عامر اليوم سـوى مقدار يسير كالقرية »[١٦] . ولمّا وصف الحموي أحوال « المدائن » وما آلت اليه أحوالها في عصره ، قال : هي « بليدة شبيهة بالقرية »[١٧] الأمر الذي يشير الى انحسار عمرانها ومنازلها .

ويرد على ألسنة الرحالة شيء شبيه بهذا ، فقد ذكر ابن بطوطة في مَعْرِض وصفه لمدينة القادسية ، وهي المدينة التي وقعت فيها المعركة الفاصلة الكبرى في التاريخ بين العرب والفرس سنة ١٤هـ (٦٤٤م) ، وكان قد زارها سـنة ٧٢٨هـ ـ ١٣٢٨م حيث قال :« وكانت القادسية مدينة عظيمة ... وخربت ، فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية كبيرة»[١٨] . ويقصد بذلك قلة منازلها ، وتضاؤل أحوالها . أما حدائق النخل ومشارع الماء التي تأخذ من الفرات ، فكانت موجودة فيها . بيد أن حجم العمران هنا لم يكن وحده الذي يحـدد حجم القرية ، بل هناك عوامل أخرى تحدد حجمها كذلك ، وتمثل مقومات الحياة فيها ، نحو ما ذكره ناصر خُسْرو في « طَيَسَن » فقال : هي « مدينة

(١٤) أحسن التقاسيم ١٢٢ ، ومعجم البلدان ١٩/٣ .
(١٥) أحسن التقاسيم ١٢٢ .
(١٦) روض الفرج وانس المهج ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م ٢٣ ، ١٩٧٣ ص ٦٣ .
(١٧) معجم البلدان ٤٤٧/٤ .
(١٨) الرحلة ، ١٧٢ .

مزدحمة ولو أنها تشبه القرية ، ماؤها قليل ، وزراعتها أقل »[١٩] .

على أن هذه المعلومات توضح لنا حقيقة مؤدّاها أن هناك نوعَيْن من القرى : نوعاً صغير الحجم ، وآخر كبيرَهُ ، وأن معيار الحجم بينهما يتوقف على عدد المنازل في كل منهما ، وان كانت النصوص الجغرافيـة ، وكذلك النصوص التاريخية لا تذكر عدد المنازل في كل منهما . ولو تيسّر ذلك ، لكان من السهولة بمكان تخمين عدد السكان . وهو أمر على غاية من الأهمية في دراستنا هذه ، اذ بواسطته يمكن تحديد قوة الانتاج ، وربما مساحته وحجم الدخل القومي في الأَرَضين الزراعية المحيطة بالقرى .

٢ ـ المعيار الوظيفي

يقصد بالوظيفة هنا الخدمات الادارية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والدينيـة في الريف ، لتلبية احتياجات السكان هناك . يقـول الحموي في « بـاب مُحوّل » : « محلة كبيرة من محال بغـداد .. وهي الآن منفردة كالقرية المنفردة ، ذات جامع وسوق مستغنية بنفسها ، في غربي الكرخ»[٢٠].

وقال في « تُوثة » ما يشبه ذلك « .. عامرة الى الآن ، لكنها منفردة شبيهه بالقرية »[٢١] . ويبدو هنـا أن القرى التي تكون في مناطق بعيدة ، أو نائية عن مراكز المدن تستطيع أن تخدم نفسها بنفسها ، وتكتفي ذاتياً بما لديها من موارد أو مرافق ، ولا يحول ضعف الاتصال بينها وبين المدن دون ديمومة حياتها الاقتصادية والاجتماعية ومنها الدينية .

وهناك اشارات أخرى توضح الأحوال العامة التي تميز القرى عن المدن والتي هي في حـد ذاتها تعـد معايير تميز كلاً منهما عن الأخرى في مجال

(١٩) رحلة ناصر خسرو ، ١٥٦ ، وطبس احدى مدن فارس .
(٢٠) معجم البلدان ٤٥١/١ .
(٢١) ن.م : ٨٨٩/١ ، ومراصد الاطلاع ٢١٨/١ .

الخدمات التي أسلفنا ذكرها ، أو في بعضها ، وذلك من خلال ما ذكره الحموي ـ نقلا عن الاصطخري ـ في مَعْرِض كلامه على مدينة برذعة الواقعة في أقصى أذربيجان ، اذ قال : « مدينة كبيرة جداً .. نزهة ، خِصْبة ، كثيرة الزروع والثمار جداً ... فيها الفندق الجيد ... وتين ، يحمل من لصوب يفضل على جميع أجناسه .... ويرتفع منها من الابريسم شيء كثير ... وفيها السمك .. وببرذعة باب .. تقوم عنده سوق تسمى « الكُرّكيّ » .. يجتمع فيها الناس كل يوم أحد .. من كل وجه وأوب حتى من العراق ... قلت (والقائل الحموي) : هذه صفة قديمة ، فأما الآن ، فليس من ذلك كله شيء ، وقد لقيت من أهل برذعة بأذربيجان من سألته عن بلده ، فذكر أن آثار الخراب بها كثيرة وليس بها الآن الاّ كما يكون في القرى ، ناسٌ قليل ، وحالٌ مضطرب ، وصعلكة ظاهرة ، وضُرٌّ بادٍ ، ودُورٌ متهدّمة ، وخرابٌ مستولٍ عليهم »(٢٢) .

ان المتتبع لهذه المعايير يلمس جلياً أنها تعكس واقع بعض المدن في ظل ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية متباينة بين عصرين مختلفين عصر الاصطخري وهو المئة الرابعة (١٠م) ، وعصر الحموي وهو المئة السابعة (١٣م) ، ولكل منهما معطياته الخاصة ، كما تعكس النظرة الاجتماعية بازاء ذلك الواقع وتفسيرها المحلي له .

٣ ـ المعيار الاجتماعي

لابد في ابتداء القول من الاشارة الى أن المعلومات المتوفرة في هذا الباب محدودة جداً ونادرة . ومردّ ذلك ، كما نعتقد ، الى اهتمام المؤرخين عموماً وغيرهم من العلماء بأحوال المدن واهمال العناية بسكّان الريف . وان كان هناك بعض الشيء في اهتمام البلدانيين ـ بوجه خاص ـ بالريف ، فان

(٢٢) معجم البلدان ١/٥٥٨ ـ ٥٥٩ .

ذلك الاهتمام انحصر في الأمـور الادارية والاقتصـادية أكثر من الاهتمام بالجوانب الاجتماعية . وما ورد من اشارات ، قد لا يفي بأن يكون ذلك معياراً لحقيقة الوضع الاجتماعي في الريف وحلقاته المعروفة ، وانما آثرنا الاشـارة اليه لاستكمال المعايير السابقة . وسيقتصر تناول الموضوع هنا على مستوى المعيشة من حيث الملبس والمسكن والمأكل .

كان لباس الفلاحين على أصـناف مختلفة تتّسـم جميعها بالبساطة . فالرجل منهم يعتمر «عمامة» من القطن تـكون ملونة في الغالب ، ويرتدي الثياب الغليظة ، وهي منسـوجة من القطن أيضاً[٢٣] . واذا ما أراد الرجل النزول من قريتـه الى المدينـة ، فانه يستعمل الجَمْجُمان في رجليه[٢٤] ـ كما هو الحال في ريف بغداد ـ وزيه هذا يكون في أحسن حال .

كما استعمل الفلاحون الجُبب[٢٥] ذوات الأكمام الواسعة . ويبدو أن سعتها كبيرة ، حتى أنهم كانوا أحيـاناً يحملون فيها أشياء من حاصـلاتهم الزراعية ، كالحنطة والتين والخوخ واللوز والفستق والبُنْدُق والبلّوط والنَّبق[٢٦] .

أما الفلاحات ، فقد استعملن الملابس الملونـة ، المصبوغـة بالأحمـر والأخضر ، والموردة . وبذلك اختلفن عن النساء الثريات في المدن ، اللائي كن لا يلبسن الملابس المصبوغة اذا لم تكن أصباغها أصلية[٢٧] . والملابس

(٢٣) الفخري في الاداب السلطانية ٣١٣ .
(٢٤) ن . ٣١٣ .
(٢٥) جمع جبة ، وهي من ملابس العامة من الناس عبـارة عن ثوب مفصـل ومخيط ، يحيط بالبدن ، ولـه كمان . وكانت العادة أن تلبس فـوق القميص . أما نوعية القماش المستعمل فيها ، فقد اختلف بحسب طبقات الناس . انظر : العامة ببغداد ، ١٥٦ .
(٢٦) نشوار المحاضرة ١٢٣/٨ ـ ١٢٤ .
(٢٧) تلبيس ابليس ١٨٣ ـ ١٨٤ ، والعامة ببغداد ، ١٦٠ .

الملونة المنقوشة تكون عادة جـذابة ، وهي في الريف تعكس جمال الطبيعة الخلابة هناك المعروفة بكثافة خضرتها • ولا تزال المرأة الريفية حتى في زمننا الحاضر تقتني الملابس الملونة والموردة ، وفي أغلب الريف العربي على حدّ علمنا المتواضـع •

أما مساكن أهل الريف ، فكانت هي أيضاً بسيطة ، مصنوعة من الحجر المفخور والمجفف تحت الشمس • وأحياناً كانت تصنع من الطين كما هو الحال في ريف مصر •

وفي أحيان أخرى اتخذوا الأكواخ مساكن لهم ، واستخدمت جذوع النخيل في بنائها • أما الغذاء ، فيقال ان الفلاحين يعدّون أقوى الناس على استمراء جميع الاغذيـة الغليظة[٢٩] • وكانوا يأكلون الخبز ، وجلّه من الشعير ، يصنعونه بأيديهم ، وأحياناً يتفننون بصناعته فيكون مشطوراً بكامخ التوت[٣٠] • وكانت الطواحين في القرى كثيرة[٣١] • أما الخبز السمذي فكان معروفاً ببغـداد بالحـواري ، ويصنع لخواص الناس[٣٢] • كما كان اللبن والبصل والكراث والتمر والجلبان ــ نوع من الحبوب ــ والرّبيثاء[٣٣] أغذية أخرى لسكان الريف • وهي أغذية على أية حال بسيطة لا تضـاهي أنواع الأغذيـة والأطعمة والأشربـة المعروفـة في المدن والتي تفنن الناس كثيراً

(٢٨) أحسن التقاسيم ، ١٩٥ .
(٢٩) الجامع لمفردات الادوية والاغذية ٤٨/٢ .
(٣٠) الفخري في الاداب السلطانية ، ٣١٣ .
(٣١) أحسن التقاسيم ، ١٩٥ .
(٣٢) معجم البلدان ٣٥٤/٢ ، اللباب ١٣٧/٢ . والخوّاري نوع من الخبز الأبيض المصنوع من طحين الحنطة المنقى من النخالة .
(٣٣) وهو الصحناء ، نوع من الادام ، يتخذ من السمك . الفخري في الآداب السلطانية ١٧٩ .

بصناعتها[٣٤] .

ان هذه الخصائص المميزة لسكان الريف في الملبس والمسكن والمأكل في العصور الاسلامية الوسيطة ، ما تزال تميز سكان الريف حتى زمننا الحاضر تقريباً .

ومع أن التطور التاريخي للمجتمع قد أثر ، بشكلٍ ما ، في معالم الحياة في الريف ، بسبب الهجرة الى المدينة والاختلاط بسكانها ، فان الفلاحين في طول البلاد الاسلامية وعرضها عاشوا في ظروف اجتماعية متماثلة تقريباً ، تمتاز بالبساطة والهدوء وتماسك الحياة الأسرية فيها . والناس في الريف تمسكوا بالدين والعادات والتقاليد تمسكاً شديدا . فاكرام الضيف ومساعدة الضعيف ، خصال حميدة ظلت تلازم القروي طوال العصور ، وهي جزء من قيمه وتراثه الاجتماعي . كما احتفظت الكثير من نواحي العالم الاسلامي بشخصياتها المحلية في قراها وأريافها[٣٥] .

ان المتتبع لدراسة معايير الريف يجد أنها مبنية على مشاهدات البلدانيين والرحالة للمناطق الريفية التي زاروها ، أو مروا بها ، وعلى ما تعارف عليه الناس في كل اقليم من أقاليم الخلافة الاسلامية . وهي بلا شك تعكس الرؤية الفكرية لتلك المعايير في تلك العصور . الا أن هذه المعايير تتباين من عصر الى عصر آخر تبعاً لعصور الازدهار الحضاري والنشاط الاقتصادي والاجتماعي للسكان ، أو عصور الاضمحلال والتدهور السياسي والانحسار الحضاري وهذا الأمر يشمل الريف والحضر على حد سواء .

فالأحوال تؤول الى الضعف والخراب في ظل ظروف اجتماعية تسودها

---

(٣٢) أنظر على سبيل المثال ما ورد في أنواع الاغذية والاطعمة ببغداد : العامة ببغداد ٩٦ ــ ١٣٣ .

(٣٥) عالم الاسلام ، ٢٥٣ ــ ٢٥٤ .

الفتن والاضطرابات السياسية وتغلغل النفوذ الأجنبي ، وغياب القيادة المركزية الواعية للدولة ، أو ضعفها ، بل يكاد يكون في نصيب الريف من الخراب في مثل هذه الأحوال أكبر كثيراً من المدن . اذ لمجرد انشغال السلطة المركزية في تلك الأوضاع واهمال أمر العناية بالفلاح وشؤون الري يترتب عليه تلف المزروعات وقلة الانتاج ، والحاق الضرر بالريف والفلاح على حد سواء . وتنعكس الحالة في ظل وضع اجتماعي يسوده الاستقرار السياسي والأمن الداخلي والاهتمام بالعمران وأعمال الري ، ومراعاة الفلاح وتوفير متطلبات العمل في الحقل الزراعي ، فتزداد القوة الانتاجية للأرض ، وتنتعش الحياة الاقتصادية ، وتزدهر التجارة ، فيزدهر الريف مع ازدهار المدن ، بل يكون الريف مصدر قوة للمدن في ازدهار أحوالها . وقد قيل قديماً ان المدينة لا تُجلّ بكثرة مدنها ، بل بجلالة قراها ومزارعها .

فلا غَرْوَ بعد هذا أن نقرأ في أخبار قرى كثيرة أنها كانت عامرة مزدهرة ، كازدهار المدن ، أو تفوقها . ومن شأن خِصب الأرض ولطافة الهواء وبساطة العيش في القرى والأرياف ، أن يجذب رجال الدولة وأعيانها ، وفي مقدمتهم الخلفاء والوزراء ، للسفر اليها طلباً للاستجمام ، والاستمتاع بالنزهة ، والاستئناس بصيد الطيور ورمي البندق[٣٦] . فهذه « صَرْصَرُ » كانت تعدّ من القرى التي تملأ النفوس بهجة وأنساً ، لأنها كثيرة الأشجار والبساتين ، وفيها فواكه كثيرة وخير وافر ، وقد استهوت الرحالة ابن جبير الأندلسي عند زيارته لها في سنة ٥٨٠هـ ـ ١١٨٤م ، وأعجبه ازدهارها واطّراد الأحوال فيها ، وذكر أن سوقها عامرةٌ ، تقصر عنها أسواق المدن[٣٧].

(٣٦) معجم البلدان ٢/٢٧٤ والذيل على طبقات الحنابلة ١/٢٨٦ .
(٣٧) الرحلة ، ١٩٣ . وصرصر قرية بكورة نهر عيسى في الجانب الغربي لبغداد . ولمزيد من المعلومات انظر للباحثة « ريف بغداد » ، ص ٤٥٤ وما بعدها .

وهذه « زَرِيران »[٣٨] كانت هي أيضاً موضع زيارته ، وكانت يومئذ تعدّ من أحسن قرى الأرض وأجملها منظرا وأفسحها ساحة ، وأوسعها اختطاطاً ، وأكثرها بساتين ورياضاً وحدائقَ نخيل[٣٩] . وكذلك « فراشا » فقد كانت قرية كثيرة العمارة ، يشقها الماء ، وحولها بسيط أخضر جميل المنظر[٤٠] . وكانت « الفارسية » غناء نَزِهة ذات بساتين موْنِقه ورياض[٤١] .

واذا كانت هذه أحوال القرى ببغداد فان قرية « العقيق » من نواحي « مكة » كانت عامرة ، مأوْها عـذب ، وينزل بها السلطان[٤٢] . أما اقليم الشام فكانت فيه قرى أجلّ وأكبر من أكثر مُدن الجزيرة ، نحو « دارَيّا » و « بيت لهيا » و « كفر سَلاّم » و « كفر سابا »[٤٣] . وكانت « دِزاه » تعدّ من مشاهير قرى الرّى ، وهي كالمدينة كبراً[٤٤] .

بل لعل ما ذكره المقدسي عن قرية « حبرى » باقليم الشام ــ وقد كانت في زمانه وهو المئة الرابعة (١٠م) تتمتع بمركز ديني وتجاري واجتماعي كبير يشابه المدن الكبرى ــ تعدّ خير نموذج ، فقد قال في صفتها : « وحبرى قرية ابراهيم الخليل ، فيها حصن منيع من حجارة عظيمة منقوشة وسطه قبة من الحجارة ، اسـلامية على قبر ابراهيم ، وقبر اسحاق قدام في المغطى ، وقبر يعقوب في المؤخر ... وقد جعل الحبر مسجداً ، وبُنَى حوله دور للزوار واختلطت به العمارة ، ولهم قناة ضعيفة . وهذه القرية الى نحو نصف مرحلة

---

(٣٨) قرية بكورة نهر الملك ببغـداد .
(٣٩) الرحلة ، ١٩٢ .
(٤٠) ن.م ١٩١ .
(٤١) معجم البلدان ٨٣٨/٣ .
(٤٢) أحسن التقاسيم ، ٨٢ ، والعقيق قرية على ميلين من مكة .
(٤٣) ن.م : ١٥٥ ، ١٧٦ .
(٤٤) معجم البلدان ٥٧٢/٢ .

من كل جانب قرى وكروم وأعناب وتفاح يسمى جبل نضره ، لا يرى مثله ولا أحسن من فواكهه ، عامتها تحمل الى « مصر » وتنشر . وفي هذه القرية ضيافة دائمة ، وطباخ ، وخباز ، وخدام مرتبون يقدمون العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء ، ويدفع الى الأغنياء اذا أخذوا »[٤٥] .

ومع أن الزراعة تعدّ حرفة أساسية لسكان القرى والأرياف ، الناس في بعض القرى قد اشتغلوا بحرف صناعية أيضاً . وقد وردت اشارات غير قليلة عن صناعات محلية متعددة كانت معروفة ، بها العديد من القرى في العالم الاسلامي . ففي « طَحا » مثلاً وهي بصعيد مصر كان يعمل ثياب الصوف الرفيعة[٤٦] . وفي « حَرْبَى » و « باقدارى » بالعراق كانت تصنع ثياب من القطن الغلاظ الصفاق . وكان انتاج « باقدارى » من الجودة والجمال بحيث يضرب أهل بغداد المثل بها[٤٧] . وكانت « الحَظيرة » ، من سواد بغداد ، مركزاً لنسج الثياب الكرباس الصفيق[٤٨] . و « قادسية سامراء » مركزاً لصناعة الزجاج والرخام العراقي[٤٩] وكانت « القُفص » مركزاً لصناعة الخمور الجيدة وفيها الحانات الكثيرة[٥٠] ، وصناعات أخرى كالعطور والكاغد « الورق » والأسلحة والفَخّار وغيرها .

(٤٥) احسن التقاسيم ، ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٤٦) احسن التقاسيم ٢٠٢ .
(٤٧) معجم البلدان ٤٧٥/١ و م ٢٣٥/٢ . وجربي وباقدارى كلاهما من قرى بغداد من اعمال كورة الدجيل .
(٤٨) معجم البلدان ٢٩٢/٢ . ولمزيد من المعلومات ، انظر للباحثة : « ريف بغداد » ٤٣٢ وما بعدها .
(٤٩) معجم البلدان ٩/٤ والقادسية قرية كبيرة تقع جنوب سامراء .
(٥٠) ن.م : م ١٥٠/٤ .

٢ ـ الحضر والمعايير المميزة له

(أ) معنى الحَضَر :

قلنا سابقاً ان الريف يُراد به القرى والمزارع المحيطة بالمدن ، وان الفلاحين هم سكان القرى والأرياف . وهذا يعني أن المدن هي مراكز الاستيطان الحضري . وفي لغة العرب : المدينة تعني[٥١] « الحصن يُبْنَى في أُصْطُمَّة[٥٢] الأرض ، وكل أرض يَبنى بها حصن في أُصْطُمَّتِها فهي مدينة ، والجمع مدائن ومُدُن » . ويقال لمن يُنسب اليها « مَدِيني » . ومدن بالمكان : أقام به[٥٣] .

ان نشأة المدن هنا تشير الى أن ابتداء عمرانها اثر الفتح العربي الاسلامي للأقاليم المجاورة للجزيرة العربية كان لأغراض عسكرية للمقاتلة .

(ب) موقع الحضر :ـ

غير أن علماء اللغة جعلوا « الريف » جزءاً من « الحضر » ، تمييزاً له عن البادية . قال ابن منظور في مَعْرِض تفسيره لتعبير « الحضر » : « والحاضرُ والحضرةُ والحاضرةُ : خلاف البادية ، وهي المدن والقرى والريف »[٥٤] . والبادية هنا يراد بها الأرض الخالية من البناء والعمران . ثم يُعلل ابن منظور تسميتها بأن أهلها حضروا الأمصار الاسلامية ، ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار .

وما قاله ابن منظور يتفق كل الاتفاق مع ما قرره العلامة الكبير

---

(٥١) لسان العرب (م د ن) .

(٥٢) الأصطمة : لغة في الأسطمة ، بمعنى وسط كل شيء . لسان العرب . جـ١٢/٢٨٧ و ٣٣٩ .

(٥٣) لسان العرب (م د ن) .

(٥٤) لسان العرب (م ص ر) .

عبدالرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ ــ ١٤٠٦م) من أن الحَضَر هم أهل الديار والبلدان[٥٥] ، أي أهل المنازل والعمران .

والأمصار واحدها مصرٌ يُراد بها عند العرب : المدن الكبيرة . قال الجوهري : فلان مَصَرَّ الأمصار ، كما يقال مَدَّنَ المدن[٥٦] . وقد روي أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، مَصَرَّ الأمصار ، منها الكوفة والبصرة ، لذلك كان يقال لهما المِصْران » . وقيل أيضا المصر : كل ما حجز بين جهتين . مثل البصرة والرَّقَّة وأَرَّجان[٥٧] .

وفي تفسير كلا التعبيرين « المصر » و « المدينة » يبدو واضحاً أن الاستقرار عامل أصل لمراكز الاستيطان الحضري في الأقاليم الاسلامية سواء في القرى أو المدن ، وان البناء والعمران من المقومات الأساسية للاستقرار الاجتماعي وهما رمز الحضارة وهو أمر يختلف كلَّ الاختلاف عمّا عليه الحال في البادية ، حيث الرعي والتنقل في طلب الكَلأ والماء . جاء في حديث « العُرَنيّين » : كنا أهل ضَرع ، ولم نكن أهل رِيف »[٥٨] . أي أنّا من أهل البادية ، رعاة الابل ، لا من أهل المدن . وأهل المدن هنا هم الحَضَر .

ومن الطبيعي أن الخصائص المعروفة التي اتسمت بها الحياة في البادية ، قد انعكست على الناس الذين يعيشون فيها ، فجعلتهم يتميزون بطابع خاص وأنماط معينة من العلاقات الانسانية تختلف عمّا هي عليه من الحال في المدن والقرى وبذلك كان لكل منهما مجتمعه الخاص ، وتقاليده وعادته الخاصة به ونظم حياته المعروفة .

---

(٥٥) التاريخ : ٢١١/١ ، والمقدمة ص ٣٤٢ وما بعدها .
(٥٦) لسان العرب : (م د ن) .
(٥٧) أحسن التقاسيم ، ٤٧ .
(٥٨) مسند احمد بن حنبل ١٦٣/٣ و ١٧٠ ، صحيح البخاري ١١٩/٣ ، و ٥٨/٤ ــ ٥٩ .

وهنـاك تعبير آخـر استعملته العرب ، ولاسيما في عصر الفتوحات الاسلامية الأولى ، وأعطته معنى ادارياً ومالياً واضحاً اقتضته ظروف الدولة الجديدة ومتطلبات التقسيم الاداري للدولة العربية الناشئة ، وهو تقسيم كان يهدف الى جباية الخراج وتقدير الضرائب على أسس عادلة تتفق مع الشريعة الاسلامية(٥٩) .

ان هذا التعبير هو « الكورة »(٦٠) . يقول الليث : « المصر في كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود ، ويقسم فيها الفيء والصدقات من غير مؤامرة للخليفة »(٦١) . فالكورة هنا مدينة لها معنى ادارى ومالي ، يراد به « المِصر » أيضاً . وبمعنى أخر ان الكوفة هي مصر ، وهي مدينة أيضاً ، وكورتهـا تسمى باسمها « كورة الكوفة » ؛ لأن الكُوَر تسمى باسـماء أمصارِها أي بأسماء مدنها(٦٢) .

وفي أوائل المئة السابعة (١٣م) كان تعبير « الكورة » يحمل مدلولاً ادارياً صِرْفاً ، يضّم عملاً واسعاً يشمل الريف بشكل خاص ، ويراد به « الصُّقْع » الذى يشتمل على عدة قرى يجمع اسمها قصبة أو مدينة أو نهراً ،

---

(٥٩) د. أمين محمود عبدالله ، الجغرافية الادارية للدولة الاسلامية من الفتح العربي الى القرن ٤هـ مجلة الدارة ، ع٣ ، ١٩٨٢ ص ٢٦٦ .

(٦٠) الكورة إسم فارسي يقع على قسم من أقسام الأستان ، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للاستان . والكورة والاستان واحد . والملاحظ ان تعبير «الكورة» لم يكن استعماله اللفظي واحداً في جميع الأقاليم الاسلامية فهو نظير « الأجناد » في بلاد الشام ، و « المخاليف » عند أهل اليمن ، و « البنود » في بلاد الروم ، و « الطساسيج » عند أهل الأحـواز ، و « الرساتيق » عند أهل الجبال . معجم البلدان ٣٩/١ ، و ٧٤٩/٤ .

(٦١) لسان العرب (ك و ر) .

(٦٢) أحسن التقاسيم ، ٤٧ .

ذلكم هو « الكورة »[٦٣] ، نحو « نهر الملك » و « دار ابْجِرْد » ويرى الدكتور أمين محمود أن « الكورة » تقابل الى حد مّا وحدة المركز في المحافظات المصرية الحالية[٦٥] . والقصبة والمدينة شيء واحد[٦٦] . نحو « بِلْبَيْس »[٦٧] وغيرها .

على أن هذه التفاصيل كلها أعطتنا المعنى اللغوي والاداري لتعابير « المدينة » و « المصر » و « الكورة » و « القصبة » . وهو أمر نرى الاشارة اليه من الأهمية بمكان . غير أن ما ينبغي ذكره أن هذا المعنى لم يكن كذلك عند البلدانيين العرب والمسلمين . وقد اعترف بعضهم صراحةً بذلك . فهذا المقدسي يقول في معنى المصر ما نصّه : « كل بلد حلّه السلطان الأعظم ، وجمعت اليه الدواوين ، وقلّدت منه الأعمال ، وأضيف اليه مدن الاقليم »[٦٨] . وتفسيره هذا لتعبير « المصر » لا يعطيه معنى سياسياً واداريا ومالياً ، ولا يجعله المركز الرئيسي للاقليم في الدولة الاسلامية ـ وهو ما نصطلح عليه اليوم بالعاصمة ـ فَحَسْب ، بل يعكس لنا طبيعة الوضع الاداري الذي آلت اليه أقاليم الخلافة الاسلامية في المئة الرابعة (١٠م) . وقد أحصى المقدسي الأمصار الاسلامية في زمانه من المشرق الى المغرب فبلغت

---

(٦٣) معجم البلدان : ١/٣٩ .

(٦٤) نهر الملك : نهر عظيم ـ بالعراق ـ مخرجه من الفرات ، ومصبّه في دجلة ، عليه كانت نحو ثلاث مئة قرية . اما مدينة دار ابجرد . فهي في فارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة دار ابجرد . معجم البلدان ١/٣٩ .

(٦٥) الجغرافية الادارية للدولة الاسلامية ، مجلة الدارة ، ١٩٨٢ ، ص ٢٦٦ .

(٦٦) أحسن التقاسيم ، ص ١١٨ .

(٦٧) بلبيس : قصبة الحوف باقليم مصر . كبيرة ، كثيرة القرى والمزارع ، عامرة ، بنيانهم من الطين ، كثيرة الطواحين . احسن التقاسيم ١٩٥ .

(٦٨) أحسن التقاسيم ٤٧ .

سبعة عشر مصراً[٦٩] .

ولكي يزيل المقدسي أي التباس قد يحصل في فهم هذا المعنى للمصر ، حاول أن يفسّره تفسيراً دقيقاً ، ويعطيه معناه الواضح ، مضيفاً اليه بعده الاجتماعي الكبير ، وذلك من خلال أنموذج ذكره في مَعْرِض كلامه على اقليم مصر ، وهو « الفُسْطاط » حيث قال فيه : « هو مصر في كل قول ، لأنه جمع الدواوين ، وحوى أمير المؤمنين ، وفصل بين المغرب وديار العرب ، واتسعت بقعته ، وكثر ناسه ، وتنضّر اقليمه ، واشتهر اسمه ، وجلّ قدره »[٧٠] .

واذا كانت هذه الأمور جميعها تمثل المعايير المحددة للمصر ـ المدينة ـ لكي يكون كذلك ، وهو أحد مقومات الحضر ، فان هذه المعايير يقر معانيها بعد نحو خمسة قرون العلامة الكبير عبدالرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ ـ ١٤٠٦م) حين قارن الحضارة بما سمّاه « المُلْك » ، أي سيادة الدولة ، وذكر ان الحضارة لا يكفي أن تكون في المدينة ، وانما ينبغي أن تلازمها سيادة ادارية ، أي نظام واستقرار ، وهو رمزالحضارة[٧١] .

بيد أن هذا المعنى للمصر ، لم يكن كذلك عند غير المقدسي من الفقهاء والعوام في عصره[٧٢] . الأمر الذي يشير الى أن التعابير الجغرافية كانت لها

---

(٦٩) وهي سمرقند ، وايرانشهر ، وشهرستان ، واردبيل ، وهمذان ، والأهواز والاحواز وشيراز ، والسيرجان ، والمنصورة (في اقليم السند) وزَبيد ، ومكة ، وبغداد ، والموصل ، ودمشق ، والفسطاط ، والقيروان ، وقرطبة . احسن التقاسيم ٤٧ .

(٧٠) احسن التقاسيم ١٩٧ .

(٧١) المقدمة ، ٣٦٨ ـ ٣٧١ .

(٧٢) يقول الفقهاء في المصر : هو « كل بلد جامع يقام فيه الحدود ، وعليه امير ،

مدلولات ومعانٍ متعددة ، وأن هذه المعاني تختلف في مضامينها عند البلدانيين عنها عند علماء اللغة والفقهاء ، والعامّة . والعامة هنا يراد بها جمهور الأمة . أي ما كان يجري على ألسنة الناس دائماً ، أو في الأقلّ المشهور بينهم في المئة الرابعة[٧٣] (١٠م) . هذا اضافة الى أن تلك التعابير كانت معانيها تتباين من اقليم الى آخر داخل الدولة الاسلامية نفسها .

واذا عُدنا الى تفسير المقدسي للمصر نلاحظ أن المصر كوحدة جغرافية كبيرة قد تطور معناه في عصره ، وأصبح يراد به عاصمة الدولة التي تحكم الاقليم الاسلامي ، وهي المركز السياسي والاجتماعي والاداري والمالي لذلك الاقليم ، وبه ترتبط بقية المدن الخاضعة له وتوابعها . وعلى هذا فان الأمصار الاسلامية ، مثل بغداد والموصل ودمشق والفسطاط والقيروان وسمرقند وغيرها ، كانت تمثل عواصم الخلافة الاسلامية في عصورها التاريخية المعروفة . أما البصرة والكوفة اللتان عدهما علماء اللغة أمصاراً أو مدناً كبيرة ، أو هكذا كانت في عصر الفتوحات الاسلامية الأولى ، فانها أصبحت في المئة الرابعة (١٠م) في عِداد القصبات . وكذلك الحال في واسط وحلوان وسامراء وصنعاء وهَراة ومرو وغيرها[٧٤] . أي أنها أصبحت مدناً داخل الاِقليم الاِسلامي ، لا عواصم . ولتوضيح ذلك تورد صورة الوضع الاِداري للاِقليم الاِسلامي كما حدده المقدسي ، قال : « اِعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك ، والقصبات كالحُجّاب ، والمدن كالجند ، والقرى كالرجّاله »[٧٥] .

ويقوم بنفقته ، ويجمع رستاقه مثل عَثَر ونابلس وزوزن » . أما العوام فالمصر عندهم « كل بلد كبير جليل مثل الري والموصل » . أحسن التقاسيم ٨٧ .

(٧٣) أحسن التقاسيم ٤٧ و ١١٤ و ١٥٥ و ٢٢٨ .

(٧٤) أحسن التقاسيم ٤٨ .

(٧٥) ن.م : ٤٧ .

ولسناهنا بصدد التفصيل في التطور الاداري الذي حصل في عواصم الخلافه الاسلامية ومدنها ، فهو موضوع خارج دراستنا . والذي يهمنا في هذا الباب هو بيان المعالم الحضرية التي كانت تتميز بها المدن ، وتجعل لها طابعاً عامّاً مشتركاً يختلف فيه حال الناس عما هو عليه في الريف بصرف النظر عن تلك المدن أكانت عواصم الخلافة الاسلامية ، أو لم تكن كذلك ، وسواء كانت تلك المدن كبيرة أو متوسطة أو صغيرة ، وسواء كانت مشهورة أو لم تكن كذلك ، نحو ما جاء عن « قرية عبدالله(٧٦) » و « قصر هبيرة(٧٧) » و « دير العاقول(٧٨) » وهذه كلها في اقليم العراق . ونحو « العريش(٧٩) » باقليم مصر وغيرها من المدن الأخرى ؛ لأن المعالم الحضرية التي تتميز بها حياة المدن سواء وجد كلها في العاصمة ــ وهو أمر طبيعي لأنها مركز الحكم والدين والتجارة والصناعة والجيش ــ أو بعضها في المدن المتوسطة والصغيرة ، تبقى دليلاً واضحاً يميز الحياة الحضرية عن الحياة الريفية التي تنعدم فيها كل خصائص المدينة الحضرية ، ومعالمها ، أو بعضها .

ومن الحقائق البديهية أن المدينة ابّانَ العصور التاريخية المتتابعة كانت

---

(٧٦) قرية عبدالله : مدينة ذات اسواق وجامع كبير وعمارة واسعة تحت مدينة واسط بينهما نحو خمسة فراسخ (٣٠ كلم) وبها قبر يزعم انه قبر مسروق بن الاجدع . معجم البلدان ٤/٨٥ .

(٧٧) قصر هبيرة : مدينة كبيرة ببغداد جيدة الأسواق يجيئهم الماء من الفرات ، كانت كثيرة الحاكة واليهود ، والجامع في السوق . أحسن التقاسيم ، ١٢١ .

(٧٨) دير العاقول : مدينة كبيرة عامرة آهلة ، الجامع [فيها] ناءٍ عن السوق ، والأسواق متشعبة جيدة تشاكل مدن فلسطين . أحسن التقاسيم ، ١٢٢ .

(٧٩) العريش : مدينة ذات جامعين ، مفترقة المباني ، والغالب عليها الرمل ، وهي قريبة من الساحل ، ولها فواكه وثمار حسنة . صورة الارض ١٣٥ ــ ١٣٦ .

بين الانحسار تارةً ، والاتساع تارة أخرى ، بسبب الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تواجهها ، ومتطلبات التقسيم الاِداري لتلك الأحوال ، اضافة الى العوامل الطبيعية وتأثيراتها المعروفة . ومن الطبيعي أن تتأثر بهذه العوامل نفسها الوحدات الاِدارية المرتبطة بالمدينة من القرى والنواحي والمزارع .

وعليه فان دراسة معالم المدن في العصور الاِسلامية سيما الوسيطة منها وخصائصها التى كانت تتميز بها عن الريف ، سواء كانت تلك المدن تمثل عواصم في أقاليم الخلافة الاِسلامية ، كما حاول المقدسي أِجمالها في تحديد معاني المصر ، المشار اِليها سابقاً ، أو لم تكن ، هو الموضوع الذي نحاول معالجته فيما يأتي من بحثنا .

(ج) المعايير المميزة للحضر

١ ـ معيار الحجم

من حيث التخطيط العمراني للمدينة في العصور الاِسلامية الوسيطة ، فاِنها قسمت اِلى أقسام ، وحدتها المحلة أو الدرب أو الشارع أو السكة أو الحارة أو النهج . وكانت دروب المدينة وشوارعها كثيرة ، بعضها ضيقة ، وبعضها واسعة[٨٠] ، لكنها على أية حال مزدحمة وشارك في أزدحامها وجود الباعة الجائلين فيها وأصحاب الحِرَف الصغيرة والصُنّاع ، أِضافة اِلى كثرة الدواب كالخيول التي يركبها علية القوم ، والجمال التي تحمل قِرَب الماء ويطوف بها السّقاؤون على المنازل والأسواق لامدادها بما تحتاج اليه من الماء[٨١] .

(٨٠) نفح الطيب ١٤٧/١ .
(٨١) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع١ ، ١٩٨٠ ، ص٨٨ .

وكان للمدن الكبرى أو العواصم والثغور ، أسوار تحيط بها لحمايتها من هجمات الأعداء وغيرهم . وكان لسور المدينة عدة أبواب قد تسمى بأسماء الجهات التي تتجه اليها وتؤدي منها وإليها ، مثل أبواب بغداد الأربعة ، وهي : باب البصرة ، وباب الكوفة ، وباب خراسان ، وباب الشام(٨٢) وقد تسمى هذه الأبواب بأسماء المناسبات التي ترتبط بها ، مثل باب زَوِيلة ، وباب النصر ، وباب الفتوح ، وباب البرقية ، والباب الجديد ، والباب المحروق ، وباب القنطرة ، وباب الفرج ، وباب سعادة ، وباب الخوخة ، وهذه كلها من أبواب القاهرة في جهاتها القبلية والشرقية والغربية(٨٣) .

أما من حيث المساحة والحجم السكاني للمدن ، فان الرحالة الأجانب الذين شاهدوها في أواخر العصور الوسطى قد أجمعوا على أن مساحتها وكثرة سكانها قد فاقت أضعاف ما هو معروف عن أية مدينة أوربية معاصرة لهم يومئذ . من ذلك ما قاله جيهان تنود من أن القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال باريس(٨٤) .

أما مدينة بغداد التي شيدها أبو جعفر المنصور سنة ١٤٩هـ/٧٦٦م وكانت تعرف يومئذ بـ « المدينة المُدَوَّرَة » ، فقد روي أن مساحتها بلغت (١٣٠)جريباً(٨٥) أي نحو (٥) كلم٢ . وكان موقعها في الجانب الغربي من نهر دجلة . ثم تطورت أحوالها واتسع عمرانها حتى امتد الى الجانب الشرقي ، وبلغت مساحتها الكلية في كلا الجانبين أواخر المئة الثالثة (٩م) (٤٣٧٥٠٠) جَرِيباً ، أي(٨٦) (٤٢)كلم . وبلغ فيها عدد الدروب والسكك (١٠٫٠٠٠)آلاف

(٨٢) تاريخ بغداد ١/٧٤ ـ ٧٥ .
(٨٣) المواعظ والاعتبار ١/٣٨٠ ـ ٣٨٣ . وعن أبواب قرطبة انظر نفح الطيب ٢/١٣ ، وأبواب سمرقند انظر : صورة الارض ، ٤٠٦ .
(٨٤) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ع١ ، ١٩٨٠ ، ٨٨ .
(٨٥) تاريخ بغداد ١/٦٩ .
(٨٦) ن.م ١/١٢٠ .

درب وسكة ، منها ستة آلاف في الجانب الغربي ، وأربعة آلاف في الجانب الشرقي[٨٧] . وهذا الاحصاء على ما فيه من المبالغة ، يشير الى سعة العمران وحجمه ببغداد في ذلك الزمن . وفيما ذكره الرحالة بنيامين التطيلي عند زيارته لها سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م من أن استدارتها بلغت (٢٠) ميلاً[٨٨] . واذا انتقلنا الى قرطبة في الأندلس ، قرأنا رواية طريفة ، فحواها احصائية بعدد المرافق العمرانية في مركزها تعود الى عصر الموحدين ، تتضمن أربعة آلاف وثلاثمئة شرفة ، وأربع مئة ونيف وثلاثين داراً ، وموقعها في القصر الكبير ومئة وثلاثة عشر ألف دار للرعايا . هذا عدا دور أهل الدولة من الوزراء وأكابر الناس والبياض التي بلغت ستة آلاف وثلاثمئة دار . أما الأرباض ، فكان عددها ثمانية وعشرين ربضاً وقيل واحد وعشرون ربضاً ، ومن المساجد ثلاثة آلاف وثمان مئة وسبعة وثلاثين مسجداً ، ومن الحمامات سبع مئة حمام ، وقيل ثلاث مئة حمام[٨٩] .

أما هندسة المنازل وتصميمها داخلَ المدن ، فكان يراعى فيها ، في مدن المشرق والمغرب جميعاً ، حَجْبَ أي عدم تمكين أي فرد في الخارج عن رؤية ما في داخل المنزل ، وتوفير قدر من الحرية لأهل المنزل في الأفنية الداخلية[٩٠] .

وقد كان للمنزل عادة شُبّاك يطل على الطريق يكون منفذاً يدخل منه النور والهواء ، وتنظر منه المارة[٩١] . وشكل المنازل هذا يبدو أنه مشابه لبيوت الأحياء الشعبية في الزمن الحاضر . أما منازل الأغنياء ، فكانت مقسمة

(٨٧) تاريخ بغداد ٩٨/١ .
(٨٨) الرحلة ، ١٣٩ .
(٨٩) نفح الطيب ٧٨/٢ .
(٩٠) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع١ ، ١٩٨٠ ص ١٠١ .
(٩١) العامة ببغداد ص ١٦٨ .

الى ثلاثة أقسام : قسم للاستقبال ، وقسم للحرَم ، وقسم للخدم[٩٢] .

على أن بعض المدن ، بسبب ازدحامها بالسكان ، عرفت نظام البناء العمودي ، فكانت الدار فيها طبقات ، قد تكون سبعة ، أو ستاً أو خمساً ، ويسكن فيها نحو مئتي شخص[٩٣] . والدار هنا يراد بها في زمننا العمارة واذا افترضنا أن المعدل الوسطي لحجم الأسرة الواحدة ستة أفراد ، فمعنى ذلك ان العمارة الواحدة كان يسكنها نحو ثلاث وثلاثين أسرة . ومن طريف عاداتهم في تلك الدور أنهم كانوا يتركون الطبقة السفلى دون سكن[٩٤] .

٢ ـ المعيار الوظيفي

زخرت المدن في العصور الاسلامية الوسيطة بالعديد من المؤسسات والمرافق العامة التي تخدم الحياة الاجتماعية في مختلف المجالات . من ذلك ما روي عن أحمد بن طولون حين أراد بناء مدينة القطائع في « مصر » في المئة الثالثة (٩م) ، فانه عزم على أن يعمرها عمارة حسنة ، فتفرقت فيها السكك والأزقّة ، وعمرت فيها المساجد الحسان ، والطواحين ، والحمامات ، والأفران ، والحوانيت ، والشوارع حتى بلغت مساحتها ميلين في ميل[٩٥] . ولا شك في أن بغداد ، هي عاصمة الخلافة العباسية ، فاقت غيرها من المدن في كثرة المرافق ، حتى غدت « مجمع المحاسن والطبقات ، ومعدن الظرائف واللطائف ، بها أرباب الغايات في كل فن ، وآحاد الدهر في كل نوع »[٩٦] .

---

(٩٢) العامة ببغداد ، ص ١٦٩ ، نقلا عن الغزالي في إحياء علوم الدين ١٦/٢ .

(٩٣) صورة الارض ، ١٣٧ .

(٩٤) ن . م ، ١٣٧ .

(٩٥) النجوم الزاهرة ١٤/٣ ـ ١٦ . وانظر ما ورد عن الفسطاط في صورة الارض ، ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٩٦) تاريخ بغداد ، ٧٩/١ ، معجم البلدان ٦٨٥/١ .

أما مدينة سمرقند ، فكان فيها أسواق كبار ، وفيها ما في المدن العظام من المحال والحمامات والخانات والمساكن[٩٧] .

واذا كان هذا الأمر في مدن المشرق ، فان مدن المغرب كان حظها وافراً كذلك . ففي الأندلس ، حرص خلفاء بني أمية أن يجعلوا من مدينة « قرطبة » صورة جديدة لدمشق ومنافساً لبغداد أيام عظمة الخلافة العباسية ، فأكثروا من تجميلها واقامة المرافق العامة المتنوعة فيها[٩٨] . ومثل ذلك يقال عن « القاهرة » ، حتى ان الرحالة ابن بطوطة ، وقد دخلها في المئة الثامنة (١٤م) وصفها بأنها « أم البلاد ... ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر »[٩٩] .

كما حفلت المدن ، ولاسيما العواصم ، بمؤسسات اجتماعية أخرى منها : المارستانات ، والمستشفيات ، لمداواة المرضى وعلاجهم . والحقيقة أن الحكومة في دولة الخلافة الاسلامية قد أولت هذه المؤسسات عناية بالغة ، على الرغم من قلة عددها ، فوفرت لها العاملين في مختلف المستويات من الأطباء والجراحين والطبائعيين والمشرفين والعمال والخدم ، وخصصت لهم الرواتب الشهرية ، كما وفرت للمرضى متطلبات علاجهم ، ولقوا فيها استحساناً ونفعاً كبيراً[١٠٠] . ومصادرنا التاريخية تحفل بأخبار عدد من المارستانات في بغداد ، والقطائع ، والقاهرة ، ودمشق ،

(٩٧) صورة الارض ، ٤٠٦ .
(٩٨) نفح الطيب ١٤٧/١ .
(٩٩) الرحلة ، ٣١ .
(١٠٠) انظر ما ورد عن المارستان العضدي ببغداد والمارستان العتيق بمصر في « الجامع المختصر » ٨١/٩ و ١٤٥ ، والمواعظ والاعتبار ٤٠٧/١ على التوالي .

وشيراز ، وأصفهان ، وغيرها[١٠١] .

ومنها أيضاً المكاتب الخاصة برعاية الأيتام والفقراء والمعدمين[١٠٢] ، والسبل والسقايات ، لتوفير ماء الشرب لعابري السبيل . وقد انتشر الأسبلة بكثرة في مدن العالم الاسلامي مشرقِه ومغربِه[١٠٣] جميعاً . هذا اضافة الى المرافق الخاصة برعاية الأغراب والعميان والقواعد من النساء . ويلاحظ على هذه المرافق جميعاً أنها لم تتخذ شكل منشآت قائمة بنفسها ، وانما اتخذت من المرافق الدينية كالمساجد والزوايا والرُبط ، مقراً لها ، بوصفها منشآت دينيـة تستهدف الخير والبر ومسـاعدة الضعيف والتقرب الى الله بفعـل الخير[١٠٤] .

أما على صعيد الحياة العلمية والدينية للمدينة ، فقد شهدت نشـاطاً منقطع النظير في هذين المجالين . يؤكد ذلك ما ورد من اشارات كثيرة عن مجالس الدين وحلقات العلـم والتدريس التي كانت تعقـد في الجوامـع والمساجد ، ثم في المدارس والرُبُط والزوايا (الخوانق) من جهة ، وكثرة هذه المؤسسات من جهة أخرى ، لاسيما الجوامع والمساجد . وقد أشرنا الى عددها في بعض المدن عند الكلام على حجم مرافقها . ونشير هنا الى أكبرها حجماً ، وأكثرها شهرة في بلاد المسلمين مشرقها ومغربها والتي تميزت بدقة بنائها ، واتقان صناعتها ، وفنون عمارتها ، ولاتزال معالمها شاخصة حتى يومنا هذا . منها مسجد دمشق المعروف بالجامع الأموي[١٠٥] ، والجامع العتيق في

(١٠١) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع١ ، ١٩٨٠ ص ١١٣ ـ ١١٤ .
(١٠٢) النجوم الزاهرة ٣/١٧ .
(١٠٣) صورة الارض ١٣٧ ، ٣٨٦ .
(١٠٤) الحـياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ع١/١٢١ .
(١٠٥) معجم البلدان ٢/٥٩١ ـ ٥٩٧ .

فسطاط مصر المعروف يومئذ بتاج الجوامع ، وهو جامع عمرو بن العاص[١٠٦]، والجامع الأزهر في القاهرة[١٠٧] ، ومسجد قرطبة[١٠٨] .

أما المدارس ، فمع أن وجودها انحصر في المدن الكبرى ولاسيما عواصم الخلافة الاسلامية ، يلاحظ أن رسالتها العلمية قد تنوعت بتنوع العلوم والمذاهب وأصول الفقه التي تدرس فيها ، وهو أمر أقل ما يقال فيه ازدهار في الفكر ، وتطور في حركة الوعي الاجتماعي . ففي دمشق مثلاً كانت المدرستان العادلية والظاهرية للشافعية ، ومدرسة السلطان نورالدين (محمود بن زنكي) للحنفية . أما المدارس الثلاث الصمصامية والنورية والشرابشية فكانت للمالكية ، وكانت المدرسة النجمية للحنابلة[١٠٩] . أما بغداد فأكبر مدارسها الكثيرة النظامية[١١٠] . التي شيدها الوزير نظام الملك الا أن المدرسة المستنصرية[١١١] التي شيدها الخليفة المستنصربالله في أوائل المئة السابعة (١٣م) توجت جميع مدارسها ، وجمعت المذاهب الأربعة في أروقتها ، فكانت بحق أول جامعة في العالم في العصور الاسلامية الوسيطة ، يقصدها العلماء والطلبة من أرجاء العالم الاسلامي كافة .

وكانت مجالس القصاص والوعاظ والمذكرين في المدينة خلال العصور الاسلامية تمثل لوناً من ألوان النشاط النفسي والفكري على المستويين العام والخاص[١١٢] . لذلك حفلت المدن وعواصم الخلافة الاسلامية خاصةً بعدد

(١٠٦) المواعظ والاعتبار ٢/٢٤٦ وما بعدها .
(١٠٧) ن.م ٢/٢٥٢ .
(١٠٨) نفح الطيب ٢/٨٣ .
(١٠٩) رحلة ابن بطوطة ، ٩١ ـ ٩٢ .
(١١٠) معجم البلدان ٢/٥٩٨ .
(١١١) الحوادث الجامعة ٥٣ .
(١١٢) المواعظ والاعتبار ٢/٢٥٣ .

كبير من الوعاظ الخطباء والفقهاء والعلماء . وكانت لهم مكانة جليلة لدى الخاص والعام ، حتى ان بعض الناس كانوا يقصدونهم لقضاء حوائجهم ، ويتوسلون بهم للشفاعة لهم عند أهل الدولة(١١٣) .

ومن المعلوم أن العصور الاسلامية الوسيطة اتسمت بمسحة دينية واضحة جعلت للفكر الديني وأهله مكانة محترمة في قلوب الناس جميعاً . وهذا يذكرنا بشروط المدينة وعمرانها يوم كانت في المئة الرابعة (١٠م) لا تعد كذلك الاّ بوجود المنبر(١١٤) ، أي أن الاعتبار الديني كان يراعى في تحديد خصائص المدينة الى جانب الخصائص الأخرى التي سبقت الاشارة اليها . على أن ما تجدر الاشارة اليه هنا أن بعض هذه المؤسسات الدينية كالجامع والرباط والزاوية ، التي عرفتها المدن بكثرة ، لم يَخْلُ منها الريف ، على الرغم من قلة عددها(١١٥) . اذْ لم تكن تزيد على مرفق واحد في القرية كوحدة اجتماعية في الريف ، وفي معظم الأحوال . والأخيرتان ــ الرباط والزاوية ــ كانتا الملاذ الوحيد لشيوخ الزهد والتصوف .

كما عرف الريف كذلك عدداً من الوظائف المدنية والعسكرية المرتبطة بالمؤسسات الرسمية الكبرى في مراكز المدن أو العواصم ، شغلها موظفون كُثُرْ . صحيح أن هذه الوظائف لم تكن في مستوى المؤسسات المركزية لكنها كانت تلبّي جانباً مهماً من مطالب سكان القرى والأرياف . وفي حدود دراستنا لريف بغداد خلال السنوات « ٥٧٥ ــ ٦٥٦هـ/١١٧٩ ــ ١٢٥٦م » أحصينا عدداً من الوظائف العاملة هناك ، شملت مناصب رؤساء القرى

(١١٣) تحفة الاحباب ، ص ٢٩ . ولمزيد من التفاصيل انظر الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع١/ص ٩٤ .
(١١٤) احسن التقاسيم ١٩٣ .
(١١٥) معجم البلدان ٢/٤٥٢ ، و ٣/٢٠٣ ٢٠٤ ــ ، والحوادث الجامعة ،٢٦٣ و ٢٨٤ ، ومراصد الاطلاع ١/٥٠٤ .

« الدهاقين »[١١٦] ، والولاة ، والصدور ، والنظار ، والمشرفين ، وأصحاب الدواوين ، والكتاب ، والعمال ، والسعاة ، والمحتسبين ، والقضاة ، والخطباء ، والوعاظ ، والنقباء ، ورؤساء الطوائف الاجتماعية « اليهود والنصارى » ، والشحنة ، والحراس ، والحماة[١١٧] .

أما في المجال الاقتصادي ، فقد ظلت المدن دائماً تمثل المراكز الكبرى الحيوية للنشاط الاقتصادي ، تقصدها قوافل التجار ومراكبهم من بلاد العالم المختلفة القريبة والبعيدة . وتنقل منها واليها مختلف أنواع البضائع والمتاجر ، وتتم في ربوعها صفقات البيع والشراء بالجملة على نطاق واسع[١١٨] .

ولا شك أن أسواق المدن هي مرآة حياتها الاقتصادية ، وعنوان نشاطها التجاري والصناعي ، والاجتماعي أيضا . وقد تشابهت الأسواق التي بنيت في المدن ابتّانَ العصور الاسلامية ، في مظهرها العمراني العام تقريباً . فأغلبها مسقوف لكيلا تكون عرضة لعوامل الطبيعة ، وبعضها كان مكشوفاً[١١٩] . كما تنوعت فيها الحِرَف وتعددت أصناف تجاراتها وخصصت لها شوارع

(١١٦) جمع دهقان : لفظة فارسية معربة ، معناها التاجر . لسان العرب (د هـ ق) . والدهقان ايضا ، رئيس القرية ـ وهو مصطلح شاع في الولايات الشرقية للدولة الاسلامية ومنها العراق ـ الذي يتولى الادارة المحلية فيها ويشتغل اهلها له . وكانت مهمته الاساسية جمع الضرائب من القرى . وقد سارع الدهاقين الى الدخول في الاسلام بعد الفتح العربي ، وصاروا حلفاء للعرب ، وحافظوا على نفوذهم ، وجمعوا ثروات طائلة . انظر : النظم الاسلامية ١١٢/١ والعصر العباسي الأول ، ١١ ـ ١٢ .

(١١٧) انظر للباحثة : ريف بغداد ٢٩٢ ـ ٣١١ .

(١١٨) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع١/٨٥ .

(١١٩) الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع١/١٥٧ .

معلومة فيها حوانيت متميزة ببضائعها ، حتى صار في بعض عواصم الخلافة الاسلامية كل سوق مفردة بحالها ، وكل أهل حرفة منفردون بتجارتهم ، ولا يختلط قوم بقوم ، ولا تجارة بتجارة ، ولا يباع صنف مع غير صنفه(١٢٠) . فكان هناك سوق البزازين ، وسوق الدجاج ، وسوق الجزارين، وسوق الوراقين ، وسوق دار البطيخ ، وسوق الصاغة ، وسوق الطيب ، وسوق الأساكفة ، وغيرها(١٢١) .. وهذه كلها من بين أسواق بغداد التي شيدت في جانبيها الشرقي والغربي .

ان ازدحام المدن بالعدد الكبير من الصناع وأصحاب الحرف كان سبباً لظهور الأصناف ــ النقابات في العصر الحاضر ــ حيث كان لأهل كل حرفةنقابة ذات نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين الجمهور(١٢٢) . ولعل هذا الأمر هو الذي دفع العلامة عبدالرحمن بن خلدون أن يولي الصنائع والحرف أهمية ، فأفرد لها فصولاً عديدة في مقدمته الشهيرة ، لكونها تمثل رمز الحضارة في المدينة . فهو يرى أن الصناعة بحِرَفها المختلفة ، كالكتابة والتجارة والحياكة والخياطة والفروسية وغيرها ، رمز للحضارة ، ولا توجد الاّ في أهل الحضر ، وانها لا تكمل الا بكمال العمران الحضري وكثرته ، لأنها مركبة وعلمية تصرف فيها الأفكار والأنظار ، على حين يرى الفلاحة أو الزراعة من معاشر المستضعفين وأهل العافية من البدو(١٢٣) .

---

(١٢٠) البلدان ٢٤٦ ، مروج الذهب ٥٥/٤ .
(١٢١) لمزيد من التفاصيل ، انظر : اسواق بغداد ، ص ٨٠ ــ ١٠٩ ، وحول اسواق مدن اخرى ، انظر : المواعظ والاعتبار ٢٥٣/٢ .
(١٢٢) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ع١/٩٥ .
(١٢٣) المقدمة ، ٣٨٣ ، و ٣٩٤ .

٣ ـ المعيـــار الاجتماعي

أما البناء الاجتماعي للمدينة في العصـور الاسـلامية ، فان ازدحام المدن بالسكان وبالمؤسسات والمرافق الدينية والدنيوية من جهـة وبألوان النشاط البشري من جهة أخرى ، جعل المدينة أشبه بمستوطنة حضرية تجمع بين أسوارها فئات متباينة من الناس يؤلفون طبقات متعددة ، تؤلف كل منها لبنة في البناء الاجتماعي للمدينة(١٢٤) ، الأمر الذي جعل الحياة الاجتماعية فيها تتّسم بطابع من الحركة والحيوية لم يكن له مثيل في بقية أنحاء العالم المعاصر يومئذ .

وكانت طبقات المجتمع في المدينـة تتكون من الحكام ، وهم الخلفاء والوزراء والأمراء والقضاة والحجّاب والقادة ، ثم علماء الدين . ثم التجار وكانوا فئتين : فئة التجار الكبار وهم أصحاب الأموال الكبيرة الذين اختصوا بالتعامل في السلع الثمينة كأنواع الرقيق والمجوهرات وغيرها ، وفئة التجار الصغار والباعة الذين كانوا على اتّصال بعامة الشعب . هذا اضافة الى جمهور كبير من أصحاب الصنائع والحرف أمثال البنائين ، والصيادين والخياطين ، والنجارين ، والحدادين ، والنحاسين ، والصباغين ، والسقائين ، والمكاريين وغيرهم ، والمعدمين وأشباه المعدمين ، وهؤلاء أطلق عليهم اسـم العامـة أو العوام من الناس(١٢٥) .

ولم يقتصر تجمـع المدينـة في العصـور الاسـلامية على الطبقـات والطوائف السابقة ، انما كان هناك أقليات لها أهميتها في بناء مجتمع المدينة ، وان تفاوتت في عددها ونوعيتها من مدينة الى أخرى بحَسَب طبيعة كل اقليم

---

(١٢٤) الحياة الاجتماعية في المدينـة الاسـلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ع١/٩٠ .

(١٢٥) العامة ببغـداد ، ٥٩ ـ ٦٢ .

من أقاليم الخلافة الاسلامية . ومن الثابت في جميع الحالات أن التسامح الاسلامي ساعد على اضفاء جو اجتماعي خاص على المدن الاسلامية ، تسوده روح الأخاء بين أهل المدينة على اختلاف طوائفهم ومللهم ونحلهم . والمتتبع لتاريخ العصور الاسلامية يسترعي انتباهه العدد الكبير من وجود الأديرة والهياكل الخاصة بأهل الكتاب « اليهود والنصارى » في كل من دمشق والقاهرة وبغداد والمغرب والأندلس(١٢٦) ، وان كانت هذه الأديرة والهياكل لم تخلُ منها مواقع عديدة من الريف(١٢٧) .

ولا شك في أن تنوع طبقات المجتمع في المدينة ، وتباينها في المستوى مع كثرة السكان ، واختلاف ميولهم ومشاربهم ، كل ذلك جعلها تحفل بالنشاط والحيوية .

ولما كانت الأمصار والمدن الكبرى هي عواصم الدولة العربية الاسلامية ، فان الحياة فيها أخذت منذ بداية العصر الأموي تتخلّى تدريجيا عن بساطتها الأولى التي اتصفت بها الحياة في مكة والمدينة . وظهر في العصر الأموي اتجاه جديد ، ومظاهر جديدة بعد الانتشار الواسع للاسلام ، ودخول أقوام مختلفة في الدين الاسلامي . وقد برز أثر ذلك في مظاهر الترف واللهو ، وفي بناء القصور وتزيينها بالفُسَيْفِساء وأعمدة الرخام والذهب ، في عصور بعض الخلفاء الأمويين(١٢٨) .

وازداد الأمر حين أصبحت بغداد حاضرة الخلافة العباسية ، حتى غدت القصور سمة من سمات الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية في العصر

(١٢٦) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع١/٩٦ .
(١٢٧) معجم البلدان ، م٢/٦٨٧ و ٦٩٣ و ٦٧٨ .
(١٢٨) تاريخ الرسل والملوك ، م٨/١٧٩٠ .

العباسي ، وغدت قصور الخلفاء العباسيين في بغداد وسامراء محوراً لكثير من القصص التي امتزجت فيها الحقيقة بالخيال(١٢٩) .

وقد حفلت المصادر العربية بصور متنوعة لمظاهر الترف ، ومنها الاعتناء بملابس الأمراء والخلفاء وسيدات البلاط العباسي . ولكن هذه المظاهر لم تكن هي السمة الغالبة للمجتمع العربي في العصر العباسي ، انما تميز هذا العصر بالرقيّ والابداع الفكري الانساني الذي يرجع الى أصول عربية امتازت بها الأمة العربية . وان هذه المظاهر التي أشارت اليها أغلب المصادر ، هي حالات خاصة لا تمثل كل المجتمع وفي معظم العصور .

ولا يخفى أن النشاط الاجتماعى الذي بدأ في مظاهره المتنوعة في العواصم الاسلامية والمدن الكبرى : كدمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، قد امتد في صورةٍ ما الى المدن الاقليمية : كصنعاء ، وحلب ، والاسكندرية ، وفاس ، وغرناطة ، حيث انتشر عدد من الأمراء وكبار الموظفين وهؤلاء كانوا في حياتهم الخاصّة والعامّة صورة مصغرة لما عليه الخلفاء والسلاطين وكبار الأمراء في العواصم(١٣٠) .

ولم تخل المدن في العصور الاسلامية من وسائل التسلية والترويح عن النفس ، كالخروج الى المتنزّهات والحدائق ، وصيد الطيور ، ورمي البندق . أمّا « خيال الظِلّ » ، فقد غدا في بعض الأوقات تسلية عامة لجميع طبقات المجتمع ، خصوصاً في مصر(١٣١) . وفي بعض الأحيان تلهّى الناس في المدن بألعاب كان طابعها المقامرة ، مثل تطيير الحمام ، ومناطحة الكباش ، ومناقرة الديوك(١٣٢) .

---

(١٢٩) تاريخ الرسل والملوك ، م٢/١١٠ .
(١٣٠) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ع١/٩٣ .
(١٣١) ن.م ص ٩٩ .
(١٣٢) للاطلاع على التفاصيل انظر : العامة ببغداد ، ص ٢٣٧ ــ ٢٤٢ .

كما شهدت المدن احتفالاتٍ وأعياداً كثيرة ، منها الاحتفالات الدينية بالمولد النبوي الشريف ، واعياد شهر رمضان المبارك ، وايام عيدي الفطر والأَضْحَى ، اضافةً الى الاحتفال عند خروج موكب الحج • وكان الناس يستعدون للأعياد والاحتفالات بالملابس الجديدة ، واعداد الحلوى ، واقامة الزينة ، وعمل الولائم،تعبيراً عن اعتزازهم وسرورهم بالمناسبة•كما كانت هناك احتفالات بالأعياد الوطنية أو شبه القومية يحتفل بها المسلمون وغير المسلمين، مثل عيد النوروز الفارسي ! أو الربيع ببغداد واحتفالات الأُسَر بالختان والأعراس وغيرها(١٣٣) •

ان ما تقدم يوضح لنا المظاهر العامة للحياة الاجتماعية التي اتصفت بها المدن في العصور الاسلامية ، وهي مظاهر قد تتّسع في مدينة ، وتنحسر قليلا في أخرى ، تبعاً لظروفها السياسية والادارية والمالية ، الاّ أنها على أية حال تعكس نمطاً معيناً من الحياة كان يختلف كل الاختلاف عما هو سائد في حياة سكان القرى والأرياف التي اتسمت بالبساطة والهدوء وان وجد جزء منها ، أي من تلك المظاهر ، فهو لا يؤلف الا نزراً يسيراً لا يمكن أن يكون معياراً لتحديد وضع اجتماعي متميز •

صفة الديمومة في بعض المعايير وظهور معايير جديدة للريف والحضر في العصر الحديث

اذا كانت دراسة المعايير التي تميز الريف والحضر في العصور الاسلامية سيما الوسيطة منها شائكة ومعقدة ، لتشتت النصوص وتبعثر الافكار ، فهي لم تكن يسيرة في عصرنا الحديث ، وقد تعددت آراء العلماء والمعنيين ، وتباينت

(١٣٣) الفخري في الاداب السلطانية ، ٢٢٥ . ولمزيد من التفاصيل انظر : العامة ببغداد ، ١٩١ ــ ٢١٥ .

أنظارهم ، واختلفت المعايير المستخدمة في تصنيف السكان الى ريفي وحضري . ففي الوقت الذي يرى فيه بعض الباحثين أن الفرق بين المدينة ــ كمستوطنة حضرية ــ والقرية « كوحدة اجتماعية في الريف » يقوم على أساس الحجم من حيث عدد السكان ، يرى آخرون أن الفرق في نوع الوظيفة للوحدة السكانية ، وفريق ثالث يذهب الى ان الفرق بينهما انما هو في المظهر العمراني[١٣٤] .

ولكل من هذه الآراء مسوّغاته ومشكلاته . فلو أخذ عدد السكان أساساً للتمييز بين المدينة والقرية ، لظهر أن المعيار يختلف من دولة الى أخرى. ففي الدنمارك مثلاً تعدّ كل وحدة سكانية يزيد عدد سكانها على (٢٥٠) نسمة « مدينة » . في حين يجب ان يزيد عدد سكان الوحدة على أربعين ألف نسمة في « كوريا » ، لكي تكون مدينة[١٣٥] ، في حين تُعَدّ فرنسا المناطق التي يتجاوز عدد نفوسها ألفي نسمة منطقة حضرية ، وما دون ذلك يعد منطقة ريفية[١٣٦] .

ومع هذا تستعمل كثير من الدول هذا المعيار للتفرقة بين الريف والحضر، كما هي الحال في الولايات المتحدة الأمريكية والهند والباكستان[١٣٧] .

واذا استعمل المعيار الوظيفي أساساً للتمييز ، وفرض أن كل وحدة سكانية يشتغل أهلها بالزراعة ، تكون قرية على حين يطلق اسم مدينة على كل وحدة سكانية يشتغل أهلها بالتجارة والصناعة . ظهرت المشكلة نفسها ، أي مشكلة الوحدات السكانية التي تجمع بين مختلف الوظائف والحِرَف ،

(١٣٤) مجتمع المدينة ، ٢٣ ــ ٢٤ .
(١٣٥) ن . م ٢٤ .
(١٣٦) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، ٢٥٩ ــ ٢٦٠ .
(١٣٧) مجتمع المدينة ، ٢٤ .

كما هي الحال في جمهورية مصر العربية(١٣٨) . ومع ذلك فان ايطالية تعتمد الوظيفة الاقتصادية معياراً للتفرقة بين الريف والحضر ، لأنها تعدّ الحضر هو « التجمع السكاني الذي يعمل أقل من نصف سكانه في الزراعة »(١٣٩) .

ولو اتُّخذَ الحجم أساساً ، لظهرت المشكلة أصعب ، ذلك لأن الكثير من الوحدات السكانية سوف تعدّ كثيراً من المدن قرى ، لمجرد أنها تقع مع مدينة أكبر منها في دائرة المركز أو المحافظة نفسها . ومع ذلك فان كلا من السويد وبولندة ورومانيا تتخذ هذا المعيار أساساً للتفرقة بين الريف والحضر(١٤٠) .

أما العراق ، فكان الى سنة ١٩٧٧ يعتمد المعيار المهني أو الوظيفي والاداري أساساً لتحديد منطقة الريف والحضر ، الا أن الاحصاء العام للسكان الذي جرى في تلك السنة ، حدد المعيار الاداري أساساً لذلك التحديد ، وأعطى مفهوماً للحضر ، أراد به « المناطق الواقعة ضمن حدود البلديات وضمن حدود أمانة العاصمة » . أما الريف فحدوده بـ « المناطق الواقعة خارج حدود البلديات وخارج حدود أمانة العاصمة »(١٤١) .

والحقيقة أن مشكلة تمييز المدينة عن الريف بمفهوم معين ظلت قائمة زمناً ليس بالقصير ، ومما زادها تعقيداً أن أجزاء المدينة الواحدة أو المجموعة الحضرية « المدينة + الضواحي » تختلف في كثير من الأحيان في مظاهر

(١٣٨) المجتمع الريفي العربي والاصلاح الزراعي ، ١٦ .
(١٣٩) مجتمع المدينة ، ٢٤ .
(١٤٠) ن.م ، ٢٤ .
(١٤١) وزارة التخطيط ، الجهاز المركزي للاحصاء : واجبات العداد والتعليمات الخاصة بملء استمارة التعداد العام للسكان ، ١٩٧٧ ، ١٥ .

التحضر البادية فيها . فبعض الأجزاء تكون أقرب الى القرى ، في حين يمعن باقي الأجـزاء في التحضر . لذلك اتفقت الهيئات الدولية « الأمـم المتحدة ووكالاتها المتخصصة » على اعتبار كل تجمع سكاني يزيد على عشرين ألف نسمة ، مدينة ، وذلك لتسهل المقارنات الدولية(١٤٢) . وبتعبير آخر اعتمـاد الحجم من حيث عدد السكان معياراً للتمييز بين الريف والمدينة .

بَيْدَ أن الهيئات الدولية اذا كان لها ما يسوّغ اعتمادها هذا المعيار ، فهذا أمر قبوله من الصعوبة بمكان . لذلك نجد أنفسنا متفقين كل الاتفاق مع علماء الاجتماع في العصر الحديث في اعتماد معايير الحجم والوظيفة الادارية والاقتصادية والاجتماعية لتمييز الريف والمدينة .

لقد وضع علماء الاجتماع تعريفاً للمدينـة ، فَحْواه « أنها تجمعات سكانية غير متجانسة تعيش على قطعـة أرض محدودة نسبياً ، وتعتمد على الصناعة أو التجارة أو عليهما معاً ، كما تمتـاز بالتخصص وبتعدد النظـام السياسي والاجتماعي » . أما الريف فهو عندهم كل ما عدا ذلك(١٤٣) . وفي ذلك تأكيد واضح لما قرره ابن خلدون في مقدمته الشهيرة وفي تناوله للحضارة والبداوة .

خلاصـــة واستنتاجات

لابد لنا ، ونحن نختتم البحث ، أن نستخلص بعض الأراء والأفكار التي استند اليها ، ونحدّد بعض الاستنتاجات التي نعتقد بأهميتها في توضيح حقيقة المعايير المميزة للريف والحضر منذ قرون طويلة خلت ، وديمومة وجودها حتى الزمن الحاضر ، وذلك من خلال ما يأتي من المقدمات :

---

(١٤٢) مجتمع المدينة ، ٢٥ .

(١٤٣) ن.م : ٢٥ – ٢٧ .

١ ــ ان الاستقرار عامل أساسي للاستيطان الحضري في الريف والحضر • فالزراعة في الريف تقتضي الاستقرار حول مصادر المياه ، ووجود الماء والأرض والانسان هو الوحدة المتكاملة للريف • والمدينة كمستوطنة حضرية هي مركز لاستقرار الانسان أيضاً ، لأنها مصدر حياته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية • فالاستقرار هنا سمة مشتركة للريف والمدينة •• أما البادية ، فطبيعتها الانتقال والترحال في طلب الكَلأ والماء ، لذلك يفتقد فيها عامل الاستقرار الذي هو سمة الحضارة •

بقي الفرق بين الريف والحضر ، فهو يكمن في أن طبيعة الريف وسماته في خِصْب الأرض والعمل في الزراعة « وظيفة المهنة » ولطافة الهواء ، وبساطة العيش ، والاخلاد الى الراحة ، والاستمتاع بالنزهة ، وهي معالم أساسية تميز الحياة الريفية بشكل عام حتى يومنا هذا •

واذا كانت بعض المعايير التي ميزت الريف قديماً ، في قلة العمران والسكان ، والانفراد الذاتي ، ووجود الخراب ، واضطراب الأحوال العامة أحياناً ، فان هذه الأمور تكاد تكون نفسها اليوم في الريف العربي المعاصر ــ أو في الأقل في الكثير من مواقعه ــ الذى تتكون قراه من مجموعة من « الصرائف » ، أو البيوت المبنية من الطين والمتباعد بعضها عن بعض ، الشيء، والتي تنعدم فيها أقل المستلزمات الصحية والثقافية والاجتماعية ، الأمر الذي يشير الى امتداد التماثل في الريف بين الأمس واليوم ••

واذا ما كسب الريف أو مواقع منه بعض المعالم الحضرية المماثلة لما هو في المدن ، فان مرّد ذلك الى عناية حكومة الدولة الاسلامية بتوفير متطلبات الحياة فيه ، وقد تشارك عوامل البعد الجغرافي للمراكز الريفية عن ويلات الحروب والاضطرابات والخراب التي تشهدها المدن ، وفي كلتا الحالتين يكون الأمر مماثلا لما عليه الحال في الزمن الحاضر حين تقوم الدول من خلال

مؤسساتها الرسمية بمحاولات عديدة للاهتمام والعناية بالريف في محاولة منها لترقيته ، وتقليص مسافة الهوّة بينه وبين المدينة .

٢ ـ أما المدن فكانت طَوالَ العصور الاسلامية معروفة بحركتها الواسعة وعمرانها الكبير ، وحياتها الصاخبة ، واختصت بوجود مؤسسات دينية ودنيوية متعددة ، كالمساجد الجامعة والأسواق والحمامات والمدارس والمارستانات والصنائع والحرف المختلفة التي تعدّ أهم معالم المدينة ، والعمران الحضري حتى الزمن الحاضر .

من هنا كان الاختلاف بين الريف والمدينة واضحاً ، وانعكس على طبيعة السكان في كل منهما ، وفي اختلاف اللهجات التي يتحدثون بها والعادات والتقاليد المعروفة بينهما . بيد أن هذا الأمر لم يكن حائلاً دون الاتصال بينهما . اذ أن حركة الاتصال كما تشير النصوص التاريخية والأدبية كانت واسعة ، وكانت القرى دائماً تغذى المدن بالعنصر البشري . وكان تجار الريف يتجهون الى المدينة للحصول على ما يحتاجون اليه من مستلزمات الحياة التي يفتقدونها في بيئتهم من ناحية ، ولتصريف الفائض من انتاج مزارعهم من ناحية أخرى . لذلك كان الريف دائماً قوام حياة المدينة في توفير الغذاء ، وكانت المدينة مركز جذب للريف طوال حقب التاريخ ؟ .